مادة: الأدب الصوفي الجزائري **السنة الثالثة ليسانس/ أدب جزائري**

الدرس رقمّ 03 **أستاذ المادة: بن زياني**

موضوعات الأدب الصوفي الجزائري: الحب الإلهي.

توطئة: ثمة إجماع نقدي أن الموضوع الرئيس الذي تميزت به قصيدة التصوف، يقوم أساسا على التغزل بالذات الإلهية ، ذلك أن" موضوعة الحب الإلهي هي أساس الخطاب الشعري الصوفي، وبؤرته الدالة فيه، وليست باقي الموضوعات إلا أجزاء منها تدور في فلكها "،وتحت ظل الحب الإلهي تنكشف موضوعات الشعر الصوفي، وإن تفاوتت المصادر والمراجع من حيث الغياب والحضور؛ حيث يحددها البعض في (الحب الإلهي،الخمر،والفناء)،و يقول آخر (الحب الإلهي ،والخمر الصوفي، والأفكار الفلسفية) ووردت في مصدر آخر مصنفة كما يلي (الحب الإلهي الرحلة، الطلل والحنين، والخمر)، فهذه الموضوعات تنبعث من صميم التجربة الصوفية. وفي هذا الدرس سنقدم بعض النماذج عن الحب الإلهي في الشعر الصوفي الجزائري القديم.

تجليات الحب الإلهي في الشعر الصوفي الجزائري القديم :

يقول درويش الجندي كتابه (الرمزية في الأدب العربي) بأنّ غاية الحياة الصوفية هي في" شوق الروح إلى الله، إنّه الحب الإلهي، إنّه الحب المطلق المجرد من النفعية "، فالحب الإلهي هو"جوهر التجربة الصوفية...وهو وسيلة من وسائل الصوفية للتعبير عن أحوالهم ومواجيدهم، فالتصوف غايته المحبة، ووسيلته المحبة، وصاحب الحال عندما يأخذ التدرج في المقامات يشعر بأن محبة الله تفيض عليه، وكلما ازداد علوا كلما ازداد حبا لله"، وعليه فالحياة الصوفية قائمة على أساس الحب الإلهي.

والشاعر الصوفي الجزائري مثله مثل الشاعر المشرقي والأندلسي، قد هام في عشق الذات الإلهية وعبر عن حب خارق مثير، فترك لنا تراثا شعريا ضخما محاطا بالرمزية التي زادته جمالا وعذوبة.

وعليه فإن كان أساس التجربة الصوفية هو حب الله تعالى، فإن التعبير عن هذا الحب تم باستخدام ألفاظ مستعارة من المعجم الغز لي و هو أساس الشعر الصوفي، وهذا رمزا لا تصريحا، حيث يتبادر للأذهان أنّه تغزل بمحبوبة من الحبيبات... تصريحا، لكن الشاعر الصوفي يتدارك هذا الفهم بتلميح أو إشارة وعبارة بأن حبه وغزله هو للذات الإلهية.

ومثال هذا قول أبو مدين شعيب:

فاح النَّدي بِمنطقي فتنازعوا أَبإسحلٍ أَسْتَاك أم بآراكِ

هَيهاتَ عَهْدي بالسواك وإنّما شَفَةُ الحبيبِ جَعلتُها سِوَاكِي

وَيَظُن من سَمِعَ الحَديثَ بِأَنَّهُ حَقٌّ حلاَ ومُدَبِرُ الأفْلاَكِ

رُؤْيَا رأيتُ وإن من أحْببتُهُ لَمُنَزَهُ عن مهنَة الإدراك

فالغزل يبدو صريحا في الأبيات الثلاثة الأولى، لكن سرعان ما يربط هذه الصورة بالخالق المنزّه عن الإدراك في البيت الأخير، فهي صورة للعشق الإلهي الذي يعبر عنه الشاعر رمزا.

ومن الشعراء الصوفيين الجزائريين الذين عبروا بعمق عن الحب الإلهي، الصوفي "عفيف الدين التلمساني أبي ربيع"، ومما قال في هذا الموضوع:

لاَ تَلُم صَبَوتي فمن حب يصبو إنّما يرحم المحبُ المحبُ

كيف لا يوقد النّسيم غرامي، ولهُ في خيام ليلى مهبُ .

ما اعتذاري إذا خبَتْ لي نار وحَبيبي أنْوارُهُ ليس تَخْبُوا؟

هذه الحلة التي حلّ فيها عقْد صبري وحلها لي حب

ملأ الكون حسنُه فلهذا كلّ صب إلى معانيه يصبو

فالمتأمل فيما جاء في هذه الأبيات يقف على جملة من مصطلحات الصوفية المتعلقة بالغزل الصوفي (من تجلي الأنوار الإلهية، الحب، إلى الحلول، ثم الكون، فالحسن... الخ، وهي تبرز صورة من صور التغزل بالذات الإلهية ، فهذا الشاعر كما يقول عبد الحميد هيمة" من الشعراء الذين ارتقوا بالشعر الصوفي وحققوا له الكثير من النضج(...) وديوانه الشعري دليل على ذلك خاصة في موضوع الحب الإلهي الذي هو باعث التجلي و باعث اندفاع الخيال ، وابتكار الصور ".

ونجد كذلك عبد الرحمان الثعالبي متغزلا بالذات الإلهية بجمالها وجلالها، قائلاً:

فيَا ذا الجلالِ، ويَا ذا الجمالِ ويَا ذَا المَعَالِي، عليْكَ اتِكَالي

فَكُنْ عندَ ظَنّي، ولا تَسْلمني وَلاَ تَخْذُلْنِي بسوء فِعَالي

فَأنتَ الرجاءُ، ومنّا الجَفَاءُ ومنك العطاءُ فَهَبْ لِي سُؤَالِي

إنّها مناجاة للذات الإلهية، ممزوجة بعبارات الحب والجمال، فهو ذلك المحب المتوسل المنكسر أمام ذي الجمال والجلال.

وفي الحب الإلهي، نجد أيضا الشاعر الصوفي عبد الحق بن ربيع الأنصاري، يصف حاله مع المحبوب في أبيات غاية العمق والجمال، فيقول:

سفَرتْ على وجه الجميلِ فَأَسفَرا وَبَدا هلاَلُ الحسنِ مِنْها مقْمرا

ودَنَتْ فَكَاشَفَتْ القلوب بِسِرِهَا وَسَقْتْ شَرَاب الأنْسِ مِنْهَا كَوثَرَا

في هذه الأبيات، تعبير عن الحب الذات الإلهية (سفرت،دنت..)، فرغم الإبهام الذي يعتريها يكشف المعجم الصوفي نزعة وصوت صوفي ينطلق خافتا ليشع وينكشف من خلال قوله: (سفرت– الحسن – مقمرا – كاشفت – سرها – سقت – شراب – أ نس) كلّها من مصطلحات الصوفية المعروفة التي تعبر عن التغزل بالذات الإلهية.

خلاصة: لقد التمس الصوفيون الجزائريون ألفاظهم وعباراتهم عن حبهم الإلهي من معجم الشعر الغز لي أو الخمري،ممّا خلّفه المحبون العذر يون والشعراء الخمر يون، وقد أدى العجز عن فهم الرموز الغزلية والخمرية إلى التشنيع على المتصوفة، والغضّ من القيم الروحية التي تنطوي عليها وتفسرها بمعانٍ مادية دنيوّية، الأمر الذي عرضهم لسوء الفهم سواء من المستشرقين أو من رجال الدين اتهموا الصوفية بالفُسق و الإباحة والكفر والزندقة.